فقه التعامل مع الابتلاء
وفق المقتضى العقدي والتشريعي في الإسلام
ـ جائحة كورونا أنموذجا



ذ. عبد الحق الحوتة

باحث بمركز دراسات الدكتوراه: العلوم الشرعية والقانونية
والاقتصادية والاجتماعية والتدبير
جامعة سيدي محمد بن عبد الله - فاس
كلية الشريعة بفاس

اقتضت طبيعة هذا الموضوع أن أتناوله في مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة.

خصصت المقدمة للتعريف بموضوع البحث وإشكاليته وأسئلته وهدفه وخطته.

أما المبحث الأول فضمنته: فقه الابتلاء بين قدر الله وبين التقدير الإنساني. ثم أبرزت في المبحث الثاني أهمية استحضار البعد العقدي أثناء الابتلاء وفوائده على الإنسان. في حين عالج المبحث الثالث: فقه الابتلاء وفق المقتضى التشريعي في الإسلام. أما المبحث الرابع والأخير فبينت فيه المقاصد الشرعية والدروس الإنسانية المستفادة من فقه الابتلاء.

ثم خاتمة تضمنت خلاصة البحث.

المقدمة: موضوع البحث وإشكاليته وأسئلته وهدفه وخطته:

لقد خلق الله الإنسان وفضله على سائر المخلوقات، وكرمه بالعقل وسخر له الموجودات، وحمله أمانة ومسؤولية إعمار الأرض وإصلاحها باعتباره خليفة الله فيها، وجعل الابتلاء سنة جارية عليه إلى الممات كما قال تعالى: ﴿ اِ۬لذِے خَلَقَ اَلْمَوْتَ وَالْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمُۥٓ أَيُّكُمُۥٓ أَحْسَنُ عَمَلاٗۖ ﴾[1]؛ وهو كما يكون بالشر يكون بالخير في هذه الحياة لقوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾[2]، وقوله أيضا:

(1) سورة الملك، الآية 2.

(2) سورة الأنبياء، الآية 35.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[1].

لكن موضوع هذا البحث سيكون محصورا في الابتلاءات والمحن التي فيها شر وضرر على الإنسان؛ أي الابتلاءات المتعلقة بالنقم وليست بالنعم، إما في صحته أو أهله أو ماله أو في أمنه؛ كالأمراض والأوبئة والجوع والفتن... مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾[2] .

وإن أعظم ابتلاء عرفته الإنسانية في هذا الزمان: جائحة كورونا المعروفة اختصارا ب:[COVID-19] التي غيرت ملامح نظام الحياة في معظم دول العالم، وفرضت إقامة جبرية على ملايين السكان، وأربكت كل الحسابات والخطط، وأوقفت عجلة الاقتصاد، وأعادت ترتيب الأولويات، وجعلت العلوم التجريبية والطبية، والأنظمة الصحية العالمية رغم تطورها عاجزة وحائرة في فهم طبيعة هذا المخلوق الذي لا يرى بالعين المجردة، وجعلت الناس يستشعرون نعم الله التي لا تحصى عليهم في هذه الظروف الاستثنائية، مثل: الصحة، والحرية في الحركة، والأمن النفسي والعائلي والاجتماعي.. وأعادت الإنسان إلى حجمه الطبيعي بعدما طغى وتجبر وتوهم أن بيده مفاتيح الكون ومصير البشر وأيقظته من أحلامه وغفلته ومن سكراته، بعدما استهوته الشهوات، وذاب في الماديات، وانسلخ من المبادئ والقيم والروحانيات!، كما ذكرته بحقيقته وعجزه وضعفه وتطلعه إلى طلب حب البقاء من خالقه كما تشهد بذلك غريزته وفطرته الأصلية التي فطر الله الناس عليها، وكأن لسان حاله يقول أمام سلطان الخوف الذي انتابه:" استنفذت حلول الأرض ولم يبق لنا إلا حل السماء"؛ أي انتظار الفرج من الله العليم القوي القادر... قال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[3]، وفعلا فقليلا ما يتذكر الإنسان ويصحو؟

ولذلك تباينت الآراء، وتعددت المواقف، وتنوعت التفسيرات والتعليلات؛ من

(1) سورة الكهف، الأية 7.

(2) سورة البقرة، الأية 155.

(3) سورة النمل، الأية 62.

طرف السياسيين، والعلماء، والمفكرين، والمثقفين، والاقتصاديين، وكل المهتمين... حول هذه الجائحة، كل حسب مرجعيته وتخصصه وزاوية نظره..، لكنها توافقت على أن العالم ما بعد أزمة كورونا لن يكون مثل ما كان قبلها.

إلا أن الإشكالية التي يحاول هذا البحث إثارتها وتلمس الإجابة عنها هي: كيف ينبغي أن يتعامل المؤمن مع هذه الابتلاءات والمحن من الزاوية الدينية الإسلامية؟ وما هو التفسير الديني العقدي، والموقف الفقهي التشريعي لهذه الجائحة؟ وما المقصد الشرعي منها؟

وعن هذه الإشكالية الرئيسة تتولد أسئلة عدة أهمها: من يتحكم في هذه الابتلاءات والمحن؟ وهل التفسير العقدي كاف للتعامل معها؟ وهل الأخذ بالأسباب والاحتياطات كالحجر الصحي مثلا يتنافى مع الرضا بالقضاء والقدر؟ وأخيرا ما هي الحكم والغايات والدروس والعبر المستفادة منها؟

أهداف البحث: يتوخى البحث في مجمله معالجة إشكاليته الرئيسة، والإجابة العلمية عن الأسئلة المتفرعة عنها، وإماطة اللثام عن بعض القضايا والمفاهيم، والإسهام في التوعية والتنوير؛ قياما بواجب النصيحة ونشر المعرفة السليمة.

تلكم هي الإشكالية والأهداف التي دفعتني للبحث في هذا الموضوع واقتراحه للمشاركة به في هذا الاستكتاب العلمي المبارك، وأرجو أن يكون جديرا بالبحث ومفيدا.

المحاور المقترحة في الدراسة: بناء على الإشكالية السابقة وأسئلتها الفرعية ستتم دراسة الموضوع وفق المباحث الآتية:

- المبحث الأول: فقه الابتلاء بين قدر الله وبين التقدير الإنساني.
- المبحث الثاني: أهمية استحضار البعد العقدي أثناء الابتلاء وفوائده على الإنسان.
- المبحث الثالث: فقه الابتلاء وفق المقتضى التشريعي في الإسلام.
- المبحث الرابع: فقه الابتلاء بين المقاصد الشرعية والدروس الإنسانية.

وفيما يأتي بيان وتحليل ذلك وفق ما يقتضيه المقام؛

المبحث الأول: فقه الابتلاء بين قدر الله وبين التقدير الإنساني:

إن من المسلمات العقدية الكبرى التي يؤمن بها المسلم باعتبارها من أركان الإيمان وجوهره: الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره "كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل المشهور". ومعنى ذلك أن كل ما يصيب الإنسان من ابتلاءات ومحن، سواء كانت خيرا أو شرا؛ مسرات وأفراحا ونعما، أو أحزانا وأضرارا ونقما، كلها من تقدير الله العليم الخبير، وأن كل ما يقع في الكون ويحدث؛ صغيرا كان أو كبيرا، قويا أو ضعيفا، خاصا أو عاما، ظاهرا أو خفيا؛ هو من علم الله المطلق، وقدرته المعجزة، وتقديره الحكيم، أدرك الإنسان ذلك أم لم يدركه، اعترف به أم جحده، اعتبر به أم تجاهله، وأن حقيقة الغيب كله عند الله، كما تشهد بذلك نصوص قرآنية كثيرة في مواضع مختلفة منها قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [(1)]، وكذا قوله: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ [(2)]، وقوله أيضا في بيان قدرته وعلمه المطلقين في تدبير الكون وتسييره: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [(3)].

وإذا تقرر هذا؛ فإن ظهور الأوبئة وانتشارها بين الناس، لا يخرج بحال عن مقتضى إرادة الله الكونية المطلقة، لقوله تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [(4)]، ومنها جائحة كورونا التي دوخت الإنسانية في عز تقدمها وتطورها.

هذا هو قدر الله وتقديره، وهذه هي عقيدة المؤمن المستقرة في عقله ووجدانه، فماذا عن تقدير الإنسان وتفسيره؟

(1) سورة يونس، الأية 61.

(2) سورة سبأ، الأية 2.

(3) سورة فاطر، الأية 44.

(4) سورة الحديد، الأية 22.

لا شك أن تقدير الإنسان وتفسيره وتعليله للظواهر الكونية، ومنها الأمراض والأوبئة كجائحة كورونا، يختلف حسب المرجعية الفلسفية والقناعة الفكرية والأيديولوجية التي ينطلق منها، وحسب زاوية نظره وتخصصه، لكن الذي يعنينا في هذا المقام التفسير العقدي في الإسلام.

إن من بين الأسئلة التي يثيرها البعض ممن لم يشع نور الإيمان في قلوبهم، أو غشت عقولهم وفكرهم بعض السحب والأغلال، نتيجة عوامل وأسباب هي: إذا كان من صفات الله: العلم المطلق، والقوة والقدرة، والحكمة والعدل والرحمة، فلماذا يبتلي عباده بهذه الأمراض والأوبئة كجائحة كورونا مثلا؟ وما الحكمة والغاية من ذلك؟ ثم أليست هذه الفيروسات من صنع الإنسان كنوع من حروب العصر البيولوجية كما يفترض بعض المحللين والخبراء؟

إن المؤمن وهو يحلل ويجيب عن هذه الأسئلة ومثيلاتها في هذا الباب ينبغي أن ينطلق من الحقائق العقدية الآتية:

1. يسلم المؤمن بناء على المقتضى العقدي السابق أن كل ما يقع في الكون دقا أو جلا، صغيرا أو كبيرا، هو داخل في علم الله المطلق، وإرادته الحرة، وتقديره الحكيم، علم الناس ذلك أم جهلوه، وأن الله قادر على أن يبدل حال الناس أفرادا ودولا وأمما من حال إلى حال؛ فسبحان مبدل الأحوال، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء أبدا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [1].

2. أن كل ما يحدث في هذا الكون من تبديل وتغيير، وظواهر وابتلاءات، يجري وفق صفة العدل الإلهي التي تتنافى مع أي مظهر من مظاهر الظلم أو الحيف مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [2]، وقوله بصيغة

(1) سورة يس، الأية 83.

(2) سورة الكهف، الأية 39.

المبالغة: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [1]، وقوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه في الحديث القدسي الصحيح: "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا..."[2]

3. وبناء على ذلك، فإن ما يحدث من اختلال في هذا الكون، وإفساد في الأرض، بسبب تدخل هذا الإنسان بعلمه المحدود كالتدخل في الطبيعة، والأسلحة المدمرة كالنووي، وصنع بعض الفيروسات المعدية والقاتلة كما يفترض البعض في فيروس كورونا الذي انقلب فيه السحر على الساحر إن صح الافتراض ؛ فإن ذلك لا يتعارض أبدا مع علم الله وقوته وقدرته، بل يعتبر ذلك تأكيدا لعظمته، وإظهارا لسلطانه، وتصديقا لحقيقة ما قرره القرآن في قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[3] وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[4]، وكذا قوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾[5].

وما أكثر ظلم الإنسان لأخيه الإنسان! وللكون والبيئة والحيوان! والشواهد التاريخية والواقعية على ذلك أكثر من أن تحصى، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: الإلحاد بالله والشرك به وتحديه علنا ومفاخرة، والحروب المدمرة، واستعباد أمم وشعوب واستعمارها، وكذا حكمها بقوة النار والحديد ولو على حساب قتل الشعب بأكمله، ونهب الثروات، والمجاعة التي يعاني منها ملايين الأشخاص عبر العالم بل ويموت بسببها ملايين الأطفال معظمهم في الشرق الأوسط وإفريقيا وفق دراسة أعدتها منظمة الأغذية والزراعة (فاو) في تقريرها

(1) سورة فصلت: 46.

(2) أخرجه مسلم في الجامع الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى برقم: 4981.

(3) سورة الروم، الأية 41.

(4) سورة الزخرف، الأية 76.

(5) سورة هود، الأية 101.

العالمي حول أزمات الغذاء لعام 2019[1]، رغم توفر لقاح الطعام! وما خفي أعظم! ناهيك عن الفساد البيئي والأخلاقي والاجتماعي والاقتصادي..، أفلا يستحق الإنسان بعد هذا الظلم والإفساد الجلي الذي ألحق ضررا وأذى فادحا بالبشر، وخرابا بالطبيعة والعمران، هذا الابتلاء والامتحان، عله يرتدع ويعتبر ويتعظ؟

وقد تضمن القرآن قصص أمم وأقوام وقرى وأفراد، كذبوا الأنبياء والرسل وجحدوا الحق، وطغوا في الأرض وعاثوا ظلما وفسادا، فعجل الله لهم العذاب والعقاب بأشكال وألوان في الدنيا قبل الآخرة، كقوم نوح وعاد وثمود ولوط وفرعون وغيرهم كثير، قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾[2]، وقوله أيضا: ﴿ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾[3]. وإجمالا، فالآيات الناطقة بهذه السنن الإلهية، والنواميس الكونية، كثيرة ودامغة، وهي تنطبق على كل الأقوام والشعوب والأمم، في كل زمان ومكان، متى توفرت أسبابها وعللها التي قررها القرآن، باعتبارها من آيات الله في الأنفس والآفاق كما قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ ﴾[4]، والعبرة من ذلك باختصار: تنبيه الناس عموما، والمؤمنين خصوصا، للتأمل والتدبر وأخذ الدروس والعبر، كما قال تعالى: ﴿ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾[5].

وفي هذا الإطار، يقول الأستاذ الحاجي الوزاني في مقال علمي بعنوان: "التفسير الإيماني للأزمات الإنسانية": "يقرر القرآن في عدد من الآيات قاعدة إيمانية نستطيع في ضوئها أن نفسر الأزمة الإنسانية وهي: (الأزمة سببها الإنسان)

(1) إعداد: دلال العكيلي، أبشع مجاعات العالم: أرقام مرعبة في 2019. شبكة النبأ المعلوماتية: [www.annabaa.org]

(2) سورة ق، الأية 12 - 14.

(3) سورة العنكبوت، الأية 40.

(4) سورة فصلت، الأية 53.

(5) سورة الحشر، الأية 2.

عندما ينحرف عن الرشاد ويقابل النعم بالكفر والجحود ويستعملها في غير محلها؛ فيحل العقاب الإلهي به، لعله يتذكر فيرجع إلى سواء السبيل، وهذا هو المقصود بالقول؛ إن الإنسان هو سبب الأزمة التي يعاني منها، وليس أنه صانعها والمتحكم فيها"[1]. وبعد أن تتبع الآيات الواردة في الموضوع واستعرضها، توصل إلى:" أن الأفعال التي تستوجب العقاب الدنيوي هي الأفعال المرتبطة بسلوك الإنسان وأفعاله وليست باعتقاده، أي اعتداء على حقوق الإنسان وإفساد للبيئة ونظام الحياة، ومن الشواهد على ذلك أن جميع العقوبات الإلهية التي حلت بالأمم السابقة لم تكن بسبب كفرهم وشركهم، أو تركهم لعبادته؛ بل كانت بسبب عتوهم وفسادهم في الأرض، والألفاظ التي تذكر غالبا في سياق استحقاق العقاب هي: الاستكبار، والطغيان، والعدوان، والفساد، والإجرام، والبغي، والذنوب، والمعاصي، والفواحش، والظلم، وهي كلها أوصاف متعلقة بالسلوك وليس بالاعتقاد. ويضيف:" أما حقوق الله الخالصة، وهي الإيمان به وتوحيده وعبادته؛ ليست من الأفعال الموجبة للعقاب المادي الدنيوي، بل عقوبتها مؤجلة إلى يوم الحساب، والله تعالى ينتقم لعباده الضعفاء ولا ينتقم لنفسه فهو غني عن العالمين، لا ينفعه إيمان المؤمن وعبادته، ولا كفر الكافر وجحوده، وهو حكم لم نستنتجه ونظنه، بل نطقت به النصوص القطعية ثبوتا ودلالة."[2] و"إذا تقرر أن ما يجري في هذا الكون من نعم ونقم، ومن داء ودواء، إنما هو بمحض إرادة الله وحكمته، علمها من علمها وجهلها من جهلها"[3]؛ فإن فيروس كورونا التاجي المستجد، الذي حير العالم وأعجزه، لا يخرج بحال عن هذا المقتضى مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ

---

(1) ذ. الحاجي الوزاني، التفسير الإيماني للأزمات الإنسانية، مجلة الإصلاح الإلكترونية [www.alislahmag.com]، عدد154، السنة 9 ماي 2020/ رمضان شوال 1441، من ص 28 إلى ص 34.

(2) نفس المجلة السابقة. قلت: وهذا الحكم والاستنتاج لا يسلم فيه للباحث بإطلاق؛ لأنه يحتاج إلى استقراء تام للنصوص الشرعية والمقارنة بينها وفهمها في سياقها الجزئي والكلي، وبيان مراد الله من إنزال العقاب بالناس؛ إما بتعجيله لهم في الدنيا أو تأجيله للآخرة. وكذا تمحيص الحقوق الخالصة لله وللعباد؛ باعتبار أن حفظ حقوق العباد من حفظ حقوق الله في الإسلام.

(3) د. محمد رفيع، " وباء كورونا بين قصد الله الكوني وقصده الشرعي"، المحور الأول: قضايا شرعية وتربوية في زمن الوباء، مقال منشور بكتاب النبراس رقم 8، (عالم ما بعد الجائحة) قراءات في تحولات الفرد والمجتمع والأمة والعلاقات الدولية، كتاب جماعي، منشورات جمعية النبراس للثقافة والتنمية بوجدة، ط1، مطبعة وراقة بلال، فاس، المغرب. إصدار إلكتروني أبريل 2020. ص: 47

عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [1]

المبحث الثاني: أهمية استحضار البعدي العقدي عند حلول الابتلاء وفوائده على الإنسان:

1ـ يتعامل المؤمن مع كل الابتلاءات والمحن التي تحل بالإنسان إما في نفسه أو أسرته أو أمواله، أو تحل بالإنسانية، كالأوبئة والأمراض مثل الطاعون قديما وجائحة كورونا حاضرا؛ على أنها جزء من قضاء الله وقدره، خيرا كان أو شرا، حلوا أو مرا، ومهما يكن من قدر الله فلا شك أن فيه خيرا وفوائد ومنافع، وإن بدا في الظاهر أنه شر ومفسدة وضرر وآلام، لقوله تعالى:﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [2]، وقوله أيضا: ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ [3]. ولو اطلعتم على ما في الغيب لعلمتم أن ما فعل ربكم خيرا. ولذلك على المؤمن أن يبحث عن كيفية تحويل هذه المصائب والمحن إلى فوائد ومنح، والأضرار إلى منافع، والشر إلى خير، أي عن الحكم والغايات والدروس والعبر المستفادة منها، هذا هو تفكير المؤمنين وتدبيرهم، بل هو تفكير كل العقلاء والحكماء في العالم؛ ونموذج ذلك فيروس كورونا الذي كان درسا قاسيا للإنسانية في مختلف مجالات الحياة: العلمية والطبية والاقتصادية والسياسية...

2 هذا النظر القدري يمنح المسلم الرضا بهذا القدر وإن كان شرا، ويهيئه عقليا ونفسيا لتقبله، ويجعله مستعدا للتعايش معه، مهما كان وقعه وضرره؛ لأن الإيمان منحه عزيمة قوية، وإرادة صلبة في مواجهته، فهو بمثابة لقاح عقلي ونفسي له؛ تماما كما يلقح الأطفال الصغار ببعض اللقاحات لتقوية جهز مناعتهم ضد بعض الفيروسات، فتأمل هذا التشبيه أيها اللبيب العاقل.

(1) سورة فاطر، الأية 44.

(2) سورة البقرة، الأية 216.

(3) سورة النساء، الأية 19.

3 بهذا النظر القدري يتحقق للإنسان التوازن العقلي والنفسي والصبر الجميل، فيتجنب الأسوء والكارثة؛ وذلك عكس من يفقد توازنه وصبره، ويتأفف ويتضجر، فيزداد السوء سوءا، وتتحول المصيبة إلى كارثة أعظم، كأن يؤذي الإنسان نفسه، أو أهله، أو مجتمعه، أو يتصرف تصرفا طائشا، أو يتخذ قرارات خاطئة، أو يصاب ببعض الأمراض النفسية كالاكتئاب مثلا الذي هو أحد أمراض العصر، وتزداد حدته في وقت المحن والشدائد كما هو الحال في هذا الحجر الصحي الذي فرضته جائحة كورونا على معظم سكان العالم. بينما المؤمن يكون في منأى عن كل هذه الاضطرابات والأمراض؛ لأنه راض بقضاء الله وقدره، بل يعتبر أن ذلك قد يكون فيه خير ومصلحة له؛ ولذلك تعجب النبي صلى الله وسلم من أمره كما في الحديث:" عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر، فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرا له"[1]؛ فتعجب النبي من حال المؤمن، وتأكيده على أن هذا يختص به فقط دون غيره، دليل على أن الإيمان هو الذي صنع هذه الحالة النفسية والشعورية والوجدانية لديه؛ هذه الحالة لها وصفتان نابعتان من الإيمان: الشكر عند النعم، والصبر عند المحن والنقم، ولن تجدهما في أية وصفة طبية بشرية، فتأمل هذا المقتضى أيها الإنسان. ولذلك" فليس بالعلم التجريبي وحده يحيى الإنسان، بل هناك شيء أسمى وأعمق، يتجاوز طب الأبدان، يحتاجه بنو الإنسان، في كل زمان ومكان، إنه نور الإيمان، والثقة بالله ذي الجبروت والسلطان"[2]، وبالتالي" تحتاج البشرية إلى الإيمان الذي يمنحها الطمأنينة واليقين، والمعنى والغاية من الخلق والحياة؛ وإلى قيمه التي تمنحها التعاون والتضامن، وتطرد عنها الجشع والطمع، والإسراف والتبذير. وآن لها أن تحيا دنياها بدينها، وأن يصطحب العلم والعقل مع الإيمان".[3] وذلك هو التكامل المطلوب الذي جاء به الإسلام، وتفتقده الإنسانية اليوم، فهل من مستجيب لهذه النداء؟

(1) صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق. باب المؤمن أمره كله خير، حديث رقم: 5452

(2) د. عبد القادر بطار، حسن الظن بالله في زمن الحجر الصحي، كتاب الرسوخ1، فقه التعامل مع كورونا، مجموعة من المؤلفين، منشورات المنتقى، ط1، 1441/ 2020، كتاب إلكتروني مجاني. ص: 41

(3) د. سعيد شبار، كورونا واستعادة مفهوم الإنسان والقيم الإنسانية، نفس المرجع السابق، ص: 16.

4 هـذا النظـر القـدري يمنـح المؤمـن أيضـا الثقـة باللـه وحسـن الظن بـه عنـد البلاء، فيسـلم وهـو مطمـئن لقـدر اللـه كـما قـال تعـالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾[1]، وأن اللـه يسـخر جنـوده لتذكـير عبـاده كـما يشـاء، وبالوسـيلة التـي يشـاء، بالوبـاء وبغيره، مصداقـا لقولـه تعـالى: ﴿ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ ﴾[2]. وهــذه هــي المعادلــة الصعبــة التــي يعجــز الأذكيــاء والنجبـاء عـن حلهـا عقليـا وعلميـا، لكـن المؤمـن يسـتوعبها ويدركهـا إيمانيـا بسـهولة وأريحيــة؛ وهــي أن كل مــا يصيبنــا مــن اللــه، ونحــن للــه، ونأخــذ بــكل الأســباب المشروعـة، لكننـا لا نفـر مـن قـدر اللـه إلا لقـدره، كـما لا نهـاب ونخـشى المـوت؛ لأنـه سـنة اللـه، وهـو بدايـة حيـاة جديـدة أبديـة للمؤمـن؛ فيهـا مـا تشـتهيه الأنفـس وتلـذ الأعـين، وليـس نهايـة وعدمـا ومصـيرا مجهـولا كـما يدعـي البعـض، وأن كل مخلـوق حـدد أجلـه في علـم اللـه الأزلي، فـلا يزيـد ولا ينقـص، وأن الأسـباب متعـددة والمـوت واحـد، سـواء بكورونـا أو بغـيره، لكننـا نسـأل اللـه اللطـف فيـما جـرت بـه المقاديـر، وأن يقبـض أرواحنـا مسـتورين لا مبدلـين ولا مغيريـن ولا فاتنـين ولا مفتونـين؛ قـال تعــالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًاۗ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[3]، فخــذ بالأســباب واطمــئن أيهــا الإنســان.

المبحث الثالث: فقه التعامل مع الابتلاء وفق المقتضى التشريعي:

إذا كان التعامـل مـع الابتـلاءات والمحـن وفـق المقتـضى العقـدي يقتـضي أن نسـلم الأمـر للـه، ونتـوكل عليـه ونحسـن الظـن بـه، وأنـه لا ملجأ منـه إلا إليـه؛ فهل يعنـي ذلك تـرك أسـباب الوقايـة والاحتيـاط والعـلاج وتجاهـل التدابـير والإجـراءات والتشريعـات.. لأنهـا تتنـافى مـع قـدر اللـه؟ كـما هـو الحـال مـع جائحـة كورونـا؟

إنـه باسـتقراء النصـوص الشرعيـة الثابتـة مجتمعـة، والقواعـد الشرعيـة كليـة، نسـتنتج أن مـن تمـام الإيمـان بقضـاء اللـه وقـدره الأخـذ بأسـباب الوقايـة والعـلاج والتدابـير

(1) سورة التوبة، الآية 51.

(2) سورة المدثر، الآية 31.

(3) سورة آل عمران، الآية 145.

المشروعة؛ ذلك أن من الضروريات الشرعية المنصوص عليها، والمقاصد الشرعية المجمع عليها: حفظ الدين والنفس، وكيف يتصور حفظ الدين ودوامه إذا ضاع هذا الإنسان المتدين وهلك؟ أليس هو خليفة الله في الأرض والمكلف بإعمارها وإصلاحها؟ ولذلك اعتنت الشريعة بهذا الإنسان عناية خاصة؛ عقلا وروحا وجسدا، واهتمت بصحته وسلامته، وعملت على رفع الحرج والمشقة عنه، وتحقيق مصالحه وسعادته ودفع المفاسد عنه، كما هو معلوم ومقرر. وبناء على ذلك يمكن أن نتحدث عن معالم فقه التعامل مع الابتلاء كالأوبئة والأمراض ومنها جائحة كورونا وفق تشريعات الإسلام فيما يأتي:

أولا: الفقه الوقائي في الإسلام: ونقصد بذلك دعوة الإسلام إلى الأخذ بكل الأسباب والتدابير الوقائية المشروعة التي من شأنها المحافظة على النفس البشرية، مادية كانت أو معنوية؛ لأن حفظ النفس مقصد شرعي واجب، والأسباب المؤدية إلى حفظها مطلوبة شرعا؛ لأن الوسائل لها حكم المقاصد كما هو مقرر، وقد تضافرت الأدلة الشرعية على ذلك منها قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[1] وكذا قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[2].

ولا شك أن الإسلام يمتلك نظاما صحيا وقائيا راقيا في التعامل مع الأوبئة والأمراض المعدية كفيروس كورونا، لو استوعبه المسلون وعملوا به ونشروه في العالمين لاستفادوا منه وأفادوا به غيرهم، ومن ذلك: الحث على الطهارة والنظافة بمختلف أنواعها: طهارة البدن والثوب والمكان والبيئة والمحيط، كما تؤكد ذلك نصوص شرعية كثيرة، ويكفي أن الصلاة وهي عمود الدين لا تصح ولا تقبل من المسلم إلا إذا كان طاهرا متوضئا بمواصفات محددة ودقيقة، وكم استغرب البعض وعاب واستهزأ بالمسلمين في كيفية وضوئهم، بل ونكت عليهم، واعتبر أن منتهى فقههم يكمن في الطهارة، لكن دار الزمن دورته وشاءت الأقدار الإلهية أن يصبح فقه الطهارة عند المسلمين، وتحديدا كيفية غسل اليدين والفم والأنف والوجه في الوضوء، وصفة طبية إلزامية في العالم، وبمختلف اللغات، من

(1) سورة البقرة، الأية 195.

(2) سورة النساء، الأية 29.

طـرف منظمـة الصحـة العالميـة، ونصيحـة الأخصائيـين، وديـدن النـاس، فـأي طهـارة للإنسـان روحيـا ونفسـيا وجسـديا أرقـى وأنفـع وأطهـر للإنسـانية مـن طهـارة الإسـلام ونظافتـه وجماليتـه؟ لكـن مـا يصـدر مـن الآخر/الغـرب يمجـد ويقـدر ويطبـق ويحتفـى بـه، ومـا يقدمـه الإسـلام يتـم تجـاوزه وتجاهلـه والتقليـل مـن شـأنه للأسـف؟. وكـم مـن توجيهـات ونصائـح وقائيـة قدمهـا الإسـلام في الأكل والـشرب والسـلام ... ولم يحترمهـا النـاس لكـن التزمـوا بـه زمـن الأوبئـة والأمـراض، تمامـا كـما يلتـزم المريـض بتوجيهـات الطبيـب ووصفتـه بالحـرف دون أي اعـتراض أو تسـاؤل، لكـن لمـا يأمـر اللـه النـاس وهـو طبيـب الخلـق ويرشـدهم إلى مـا ينفعهـم، وينهاهـم عـما يضرهـم، يكابـرون ويتأففـون ويعترضـون، ويتعالمـون ويـبررون ثـم لا يسـتجيبون؟ فـما أغبـاك أيهـا الإنسـان رغـم عقلانيتـك وعلمـك؟؟ ومـا أجحـدك للحـق رغـم ظهـوره وتجليـه في الأنفـس والآفـاق؟!

ومـن الفقـه الوقـائي في الإسـلام زمـن الأوبئـة والأمـراض أيضـا: الحجـر الصحـي عـلى النـاس؛ ومعنـاه عـزل المـرضى عـن الأصحـاء، بـل وعـزل النـاس عـن بعضهـم البعـض تجنبـا لانتشـار الوبـاء كـما هـو الحـال هـذه الأيـام مع جائحـة كورونـا؛ وهـو أمـر مطلـوب ومـشروع في الإسـلام، ويجـب الامتثـال لـه كإجـراء وقـائي وفعـال؛ لقولـه صـلى اللـه عليـه وسـلم عـن وبـاء الطاعـون:" فـإذا سـمعتم بـه بـأرض، فـلا تقدمـوا عليـه، وإذا وقـع بـأرض وأنتـم بهـا فـلا تخرجـوا فـرارا منـه، "[1]. وكـذا قولـه:" لا يـوردن ممـرض عـلى مصـح"[2]. وغيرهـا مـن توجيهـات الرسـول عليـه الصـلاة والسـلام التـي قصـد بهـا محـاصرة الأمـراض المعديـة.

وهنـا لا بـد مـن التنبيـه عـلى أمريـن: الأول أن هـذا الحجـر الصحـي يشـمل منـع تجمـع النـاس في مختلـف مجالات الحيـاة، ومنهـا إغلاق المسـاجد[3] ووقـف الصلوات الخمـس المفروضـة فيهـا وصـلاة الجمعـة والتراويـح، مـع اسـتمرار رفـع الآذان فقـط،

(1) أخرجه مسلم في الجامع الصحيح، كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها برقم 4227.

(2) البخاري في الجامع الصحيح، كتاب الطب، باب لا هامة، رقم: 5770.

(3) فتوى المجلس العلمي الأعلى بالمغرب المتعلقة بإغلاق المساجد مؤقتا إلى أجل غير مسمى بسبب هذا الوباء بتاريخ 16 مارس 2020/ 21 رجب 1441هـ

وكذا فتوى عدم غسل الميت[1]، وإقامة صلاة الجنازة عليه بأعداد محددة فقط، وهي إجراءات وقائية واحترازية تتطابق مع توجيهات الإسلام الشرعية في الحجر الصحي عند الوباء، وقواعده الكلية ومقاصده الشرعية في حفظ النفس البشرية، كما صدرت بذلك فتوى المجلس العلمي الأعلى بالمغرب، والهيئات الإفتائية في العالم. الأمر الثاني: أن خرق بعض الناس لقانون الحجر الصحي، وخروجهم في تجمعات بدعوى التضرع إلى الله تعالى ورفع الأصوات بالتكبير والدعاء لرفع هذا الوباء،[2] هو خروج عن توجيهات الإسلام، وفهم مغلوط لحقيقة الدين، وخلل في البناء العقدي الكلي للإنسان المسلم، وتسبب في الإضرار بالنفس والمجتمع والأمن والنظام العام، و"إن صنيع أصحاب هذه الجهلة شبيه بصنيع من أفتى صاحب جراحة الرأس بأنه لا يحل له التيمم، بل يجب عليه الاغتسال، فمات بسبب جهالتهم، فدعا عليهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله:" قتلوه قاتلهم الله، ألا سألوا إذا جهلوا، إنما شفاء العي السؤال"[3]، إن الدين علم وفقه، ومصلحة للناس، والدعاء تضرع وخشوع لله وبكاء في السر، وليس عاطفة وتهييجا لعواطف الناس وتغريرا بهم ومغامرة بأرواحهم وإلحاق الأذى بهم. فاتقوا الله يامن تتضرعون إليه، وافقهوا دينكم!.

ثانيا: الفقه العلاجي: ويقصد به حث الإسلام على التداوي واتخاذ الأسباب المادية للعلاج، كتشخيص الداء وأخذ الأدوية المزيلة للمرض. وهذه الأسباب لا تتنافى بأي حال مع الرضا بالقدر، بل هي جزء من نواميس الكون التي خلقها الله وقدرها، فكما أن المرض والابتلاء حاصل بقدر الله، كذلك العلاج حاصل بقدره، لقوله صلى الله عليه وسلم: "تداووا، فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له دواء، غير داء واحد الهرم"[4]. قال ابن حجر:" والتداوي لا ينافي

(1) فتوى المجلس العلمي الأعلى بالمغرب بناء على استفسار وزارة الصحة المغربية في شأن عدم غسل المتوفين بكوفيد 19، لاعتبارات شرعية وصحية، بتاريخ 30 شعبان 1441/ 24 أبريل 2020. ك. 223 / 20.

(2) كما وقع في بعض أحياء مدينة طنجة المغربية من طرف بعض الجهال والمغرر بهم.

(3) د. سعيد بيهي، تعاطي الحجر الصحي لا ينافي الرضا بالقضا، كتاب الرسوخ1 السابق، ص: 28.

(4) ابن ماجه في السنن برقم: 3436، واللفظ له. كما رواه أبو داود والترمذي والنسائي في سننهم أيضا.

التـوكل كـما لا ينافيـه دفـع الجـوع والعطـش بـالأكل والـشرب"[1]، بـل إن تـرك الأسـباب المفضيـة للشـفاء بدعـوى الرضـا بالقضـاء والقـدر؛ سـوء فهـم وأدب مـع حكمـة اللـه ونواميســه الكونيـة.

وهنـا ينبغـي التنبيـه إلى أمـر في غايـة الأهميـة وهـي أن الأمـة كـما تجتهـد في فهـم الديـن، يجـب أن تجتهـد في فهـم الدنيـا أيضـا، وأن الاهتـمام بالعلـوم الحقـة والعلـوم التجريبيـة يجـب أن يكـون في مسـتوى الاهتـمام بعلـوم الشريعـة والدين، بـل وربما أولى وأوكـد في بعـض التخصصـات كعلـوم الطـب؛ وأن منزلـة الطبيـب المسـلم ودرجتـه عنـد اللـه لا تقـل عـن درجـة الفقيـه والمفتـي؛ لأن كليهـما يـؤدي خدمـة للإنسـانية، ويسـهم في تحقيـق وظيفـة عـمارة الأرض وإصلاحهـا، وهكـذا في سـائر العلـوم والتخصصـات؛ لأنــه مــن المؤســف أن يبقــى المســلمون عالــة عــلى غيرهــم، متفرجــين ومكتفــين بالدعــاء، وينتظــرون مــا ستســفر عنــه أبحاثهــم ومختبراتهــم، ويتوصـل إليـه علماؤهـم مــن حلــول وأدويــة ولقاحــات لعــلاج هــذه الأوبئــة والفيروســات كــما ننتظــر الآن مــع وبــاء كورونــا، وفي هــذا الإطــار يقــول المفكــر المــصري الدكتــور مصطفــى محمــود رحمـه اللـه قبـل زمـان! متحدثـا عـن عـلاج الفيروسـات: "لـو انتـشر فـيروس قاتـل في العـالم وأغلقـت الـدول حدودهـا وانعزلـت خوفـا مـن المـوت المتنقـل، ستنقسـم الأمـم بالغالـب إلى فئتـين: فئـة تمتلـك أدوات المعرفـة تعمـل ليـلا ونهـارا لاكتشـاف العـلاج، والفئـة الأخـرى تنتظـر مصيرهـا المحتـوم، وقتهـا سـتفهم المجتمعـات أن العلـم ليـس أداة للترفيـه بـل وسـيلة للحيـاة"[2]. وشـاءت الأقـدار أن يتحـول هـذا الافـتراض إلى واقـع يعيشــه العــالم أجمــع بســبب فــيروس كورونــا. والمقصــود بالبحــث العلمــي في هــذا الســياق: الأبحــاث التــي تجريهــا الــدول في معاهدهــا ومختبراتهــا وتحــت ســيادتها وحقـوق ملكيتهـا الخاصـة، وليـس الأفـراد الذيـن يشـاركون فيهـا والذيـن قـد يكونـون مـن جنسـيات وديانـات مختلفـة، ومنهـم المسـلون كـما هو الشـأن مـع العقـول والأدمغة المسـلمة المهاجـرة في الـدول الغربيـة، حتـى ولـو كانـت مشرفة عـلى فريـق البحث، لأن الاخـتراع ينسـب للدولـة الحاضنـة والمشرفـة عـلى العمليـة، وليـس للدولـة التـي ينتمـي

(1) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، 10/ 140

(2) هذه المقولة انتشرت في مختلف مواقع التواصل الاجتماعي زمن كورونا، وهي مقتطفة من إحدى حلقات برنامجه الشهير:" العلم والإيمان" والحلقة موجودة على يوتوب صوتا وصورة لمن أراد التأكد والتوسع أكثر.

إليها الباحث من حيث الأصل، وهذا درس كبير لدول المسلمين وشعوبهم من أجل أن يعيدوا النظر في أولوياتهم وسياستهم خاصة في مجالي: التعليم والصحة، فهما أساس بناء الإنسان وصلاحه وحفظ صحته وسلامته، باعتباره أساس كل تغيير وإصلاح وبناء للحضارة والعمران؛ فهل من متعظ ومعتبر؟

ثالثا: فقه الدعاء: من الأسباب الأساسية التي شرعها الإسلام: التوجه إلى الله بالدعاء والتضرع إليه في السراء والضراء، والأمل والثقة فيه بتفريج الكرب والهموم ورفع الوباء والضرر، والصبر عند الابتلاء؛ لأنه يدل على انكسار هذا الإنسان واعترافه بعجزه وحيلته وقوته وضعفه وحاجته إلى رحمة ربه بحالة نفسية ووجدانية وشعورية معبرة عن ذلك، وهذا هو الفرق بين الدعاء ومجرد الطلب العادي في هذا المقام؛ لأن الإنسان في حقيقته وجوهره مفتقر إلى ربه في جميع أحواله، مهما تغافل وتجاهل وعاند واستكبر، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾ [1]. ومما يشمله الدعاء: قراءة القرآن والصلاة والذكر..؛ وكل ما فيه التجاء إلى الله وإظهار للافتقار إليه .. وقد قص علينا القرآن قصص بعض عباده الذين مسهم الضر، فالتجأوا إلى الله بخالص الدعاء، وتضرعوا إليه فكشف ما بهم من ضر وهم وغم، كما قال تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [2]. ولحدود كتابة هذا الأسطر ليس هناك خبر يقيني يبشر بالتوصل إلى لقاح يخلص البشرية من كابوس كورونا، مما يعني الاستعانة بكل الأسباب المادية والمعنوية لمواجهة هذا الوباء،" وإن واجب الوقت في زمن كورونا يقتضي من الجميع المنافسة في البحث عن "اللقاحات" الممكنة لرفع الوباء عن الناس، ولو في الحدود الدنيا، حتى يأتي

(1) سورة فاطر، الأية 15.

(2) سورة الأنبياء، الأية 83 - 88.

الله بالفرج التام".[1] ومنها الدعاء؛ حيث وعد الله عباده المخلصين بالاستجابة لهم فقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[2] وقوله أيضا: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[3]. فاللهم عجل برفع هذا الوباء آمين.

المبحث الرابع: فقه الابتلاء: مقاصد شرعية ودروس إنسانية

إن من صفات الله وأسمائه: الحكيم؛ أي أنه لم يشرع شيئا إلا ولحكم وغايات ومقاصد؛ علمها من علمها وجهلها من جهلها، وابتلاء الإنسان وامتحانه لا يخرج عن هذا المقتضى؛ فهي وإن بدت في ظاهرها شر وضرر وأذى للإنسان، إلا أن فيها خيرا ومنافع وعبرا لهذا الإنسان؛ أي أنها محن في طياتها نعم، قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[4]، ونموذج ذلك وباء كورونا الذي رغم قساوته على الإنسانية إلا أن فيه فوائد دينية ودنيوية كما سنرى.

هذه المقاصد والغايات والفوائد يمكن تقسيمها منهجيا إلى مقاصد شرعية ودروس إنسانية:

أولا: المقاصد الشرعية لابتلاء الإنسان:

بناء على المقتضى العقدي السابق، فإن ابتلاء الإنسان يكون بسبب إفساده في الأرض وخروجه عن سبيل الهداية والرشاد، كما تؤكد ذلك نصوص قرآنية كثيرة، وبدراسة هذه الآيات وتتبع علة الابتلاء وسببه وغايته، يمكن استنتاج بعض المقاصد الشرعية وفق الآتي:

- إبراز قدرة الله وعظمته وسلطانه، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنه يغير حال الأفراد والشعوب والأمم من حال إلى حال، دون

(1) د. عمر جدية، توجيهات روحية وتربوية في زمن "كورونا"، كتاب النبراس، ص: 99

(2) سورة غافر، الأية 60.

(3) سورة البقرة، الأية 186.

(4) سورة البقرة، الأية 216.

توقع منهم ولا سابق إنذار وإشعار؛ لأن أمره كائن بين الكاف والنون: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾(1)، ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾(2)، وأن تدبير هذا الكون بيد الله حقيقة وليس بيد أي قوة عظمى كأمريكا وروسيا والصين وغيرها كما يتوهم البعض، وقد شاهدنا هذه الدول وغيرها رغم تقدمها وعلمها وصناعتها وقوتها تغلق حدودها البرية والبحرية والجوية، وتفرض حجرا صحيا وإجراءات وقائية صارمة على المواطنين، وسخرت كل إمكانياتها ومواردها، ومع ذلك بدت عاجزة عن مواجهة هذا الفيروس المتناهي الصغر، وحتى لو افترضنا جدلا مع المفترضين أنه صنع بشري ونوع من الحرب البيولوجية القذرة بين قوى الاستكبار العالمي؛ فإن السحر قد انقلب على الساحر، وأنها أول من اكتوى بناره، وأن تدبير الإنسان شيء، وتقدير الله شيء آخر، ولا يكون إلا ما أراد الله: ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾(3).

- المقصد الشرعي الثاني لهذه الابتلاءات: أنها ترجع الإنسان لحجمه الطبيعي البشري، وتذكره بأصله، وأنه يبقى مخلوقا ضعيفا وعاجزا لا حول له ولا قوة إلا بالله الخالق، رغم عقله وعلمه وقوته وتطور صناعته... ونموذج ذلك فيروس كورونا الذي لا يرى إلا بالمجهر الدقيق، حيث دوخ العالم، وعجز العلم والطب عن كشف خباياه وأسراره وإيجاد علاج يناسبه لحدود كتابة هذه الأسطر، بل وعجزت دول توهمت أنها صاحبة السيادة في هذا الكون وأن مصير الإنسان والشعوب بيدها كدولة العم سام عن مواجهته رغم إمكانياتها وتبجحها بذلك في بداية الأمر، وهكذا ضعف القوي والضعيف، والطالب والمطلوب بتعبير القرآن في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ

(1) سورة يس، الأية 82.

(2) سورة القصص، الأية 68.

(3) سورة الأنفال، الأية 30.

ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [1].

- المقصد الثالث: اختبار مدى صبر الإنسان ورضاه وتحمله لقضاء الله وقدره، وهل هو من العابدين الشاكرين في كل الأحوال حقا، أم من الذين يعبدون الله على حرف فقط كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾[2]. فقد ابتلى الله أنبياءه ورسله وهم خير خلقه بابتلاءات مختلفة في أهلهم وأولادهم وصحتهم ...كما قص علينا القرآن ذلك، وعلى سبيل المثال لا الحصر: نوح مع ولده، وإبراهيم لما أمر بذبح ولده إسماعيل، وأيوب في صحته، ولوط مع زوجته، ومحنة يعقوب ويوسف عليهما السلام، وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم ومحنته مع قومه في تبليغ رسالة الإسلام... وهذا غيض من فيض كما يقال، ولمن أراد البيان أكثر فليراجع قصص الأنبياء في القرآن. لكنهم جميعا رضوا بقدر الله واستعانوا على ذلك بالصبر الجميل وحسن الظن بالله واليقين فيه والأمل في يسره وفرجه والثقة في نصره، فحقق لهم الله ما وعدهم به وجزاهم بالجزاء الحسن في الدنيا بأن مكن لهم ولدعوتهم في الأرض، ووعدهم بالجزاء الأوفى في الآخرة مصداقا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[3]، وقوله: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾[4]. وهذا الابتلاء سنة جارية على الخلق إلى يوم الدين كما قال تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [5]

(1) سورة الحج، الأية 73 - 74.

(2) سورة الحج، الأية 11.

(3) سورة يوسف، الأية 90.

(4) سورة البقرة، الأية 185 - 187.

(5) سورة الملك، الأية 1 - 2.

- من أبرز المقاصد الشرعية لفقه الابتلاء: تنبيه الإنسان وتحذيره من عاقبة ظلمه وطغيانه وتجبره وإسرافه في الشهوات المحرمة، وإفساده في الأرض، من خلال تذكيره بمصير الأفراد والأقوام والأمم السابقة، ولذلك يختم الله في الغالب الآيات التي تتحدث عن إنزال الله العقاب بالناس: بعبارة: إن في ذلك لآيات: لقوم يعقلون/ يفقهون/ يتفكرون/يتدبرون...وكل ذلك: ليتأمل الإنسان ويتدبر؛ لعله يتعظ ويعتبر، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وأمعن النظر، كما قال تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [1]، لكن: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [2]

إنها دروس بليغة في العقيدة، تقدمها الأوبئة والمحن لبني البشر لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [3]، وقوله أيضا: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [4].

ثانيا: فقه الابتلاء: دروس وعبر للإنسانية

إذا كان لابتلاء الإنسان مقاصد شرعية أرادها الله منها كما سبق بيان بعضها؛ فإن فيها دروسا وعبرا للإنسانية أيضا في حياتها؛ سواء على مستوى الفرد أو المجتمع أو الدولة، كما في جائحة كورونا؛ وفيما يأتي بيان ذلك باختصار:

أولا: على مستوى الفرد: قد لا نبالغ إذا قلنا بأن هذه الابتلاءات والمحن تعطي درسا قاسيا للإنسان في الحياة، ونموذج ذلك جائحة كورونا التي أحدثت انقلابا وتحولا عميقا في حياة الناس وواقعهم الاجتماعي والاقتصادي..؛ بحيث اضطرتهم إلى التنازل طواعية وكرها، رهبا ورغبا، عن نمط حياتهم المعتاد، وحريتهم في

---

(1) سورة الحاقة، الآية 12.

(2) سورة الحج، الآية 46.

(3) سورة الأنعام، الآية 65.

(4) سورة الأحزاب، الآية 16 - 17.

الحركة والتنقل والتجوال والعمل والسياحة...، وأجبرتهم على المكوث في المنازل وعدم الخروج إلا للضرورة مع أخذ الاحتياطات اللازمة، كما أصبحت ممارسة الأنشطة التعليمية والإدارية والتجارية بل وحتى الترفيهية، تمارس داخل المربع السكني عن بعد بما هو متاح من الوسائل التكنولوجية الحديثة، كما انعدمت الزيارات بين الأقارب، ومنع السلام، والحفلات، والجنازات إلا لأفراد محددين وبشروط خاصة، وكذا مجالس العزاء، وأقفلت المدارس والمساجد وغيرهما من المرافق الاجتماعية الحيوية...؛ إنها بلا شك فتنة في الحياة، ما خطرت ببال الناس، ولا تنبأ بها خبراء المستقبليات؛ كل هذا سينجم عنه لا محالة تبدل وتحول في كثير من المفاهيم والقناعات والمسلمات والمقاييس التي كان يقيس بها الإنسان الأشياء، ويحلل بها الظواهر والنواميس.

كما تعتبر هذه الابتلاءات فرصة ذهبية للإنسان ليعيد النظر ويتأمل ويتدبر، ويتوب ويصلح بعد الخطأ ويصحح المسار، ويؤوب إلى ربه متضرعا ومنكسرا ومعترفا بذنوبه، ومفتقرا إلى عفوه ورحمته، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [1] وقوله أيضا: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ [2]. وإجمالا، فابتلاء الإنسان بهذه الأوبئة والأمراض لا يخرج عن كونه رسالة لهذا الإنسان سواء لتوعيته بمسؤوليته وأمانته، أو تنبيهه وتحذيره، أو تنقيته من ذنوبه ومعاصيه، أو تربيته وتدريبه على التحمل واليقين والأمل في الله، أو ترقيته ورفع منزلته إن صبر واحتسب، وأيضا ليعيد النظر في حساباته وأولوياته وعاداته التي اعتقد أنها من أساسيات يومه، وأنه كما استطاع أن يتكيف مع إجراءات الحجر الصحي في زمن كورونا وتغيير نمط حياته، فإنه قادر كذلك أن يغير ما بأفكاره ونفسه وقناعاته وعاداته وسلوكياته، وصولا إلى التغيير المنشود ، قال تعالى:﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[3]، وهذه إحدى غاية التربية والتزكية في الإسلام.

(1) سورة النحل، الأية 53.

(2) سورة الزمر، الأية 8.

(3) سورة الرعد، الأية 11.

وجملة القول، فهذه اللحظات الاستثنائية التي تمر منها الإنسانية فرصة للتقييم الذاتي ومحاسبة النفس، وإعادة النظر في كثير من القناعات والمسلمات، وتصحيح العمل والمسار قبل فوات الأوان؛ خاصة وأن الحجر الصحي فرض على الإنسان خلوة وعزلة مع نفسه بعيدا عن كل مشوشات الحياة التي تصرفه عن التفكير العميق فيما حدث: لماذا حدث؟ وكيف؟ وما العمل؟ قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[1].

ثانيا: على مستوى الأسرة والمجتمع : لقد اعتقد البعض أن نمط الحياة المعاصرة قائم على مبدأ الحياة الفردية وإشباع الرغبات المادية، والتمرد على كل القيم الاجتماعية دون اعتبار للآخر وفق منطق الحرية الفردية المتوحشة كما يروج لذلك بعض دعاة الحداثة المعطوبين فكريا وأخلاقيا، لكن لما تحل هذه الابتلاءات بالناس كفيروس كورونا مثلا تتعالى أصوات الجميع بالحديث عن أهمية الأسرة والمجتمع ودورهما في هذه الظروف الاستثنائية خاصة؛ الأمر الذي يؤكد حاجة الإنسان إلى الأسرة وضرورة رد الاعتبار لها بعد ما تراجع دورها أو انعدم بفعل التأثير السلبي للعولمة من جهة، وكذا أهمية بناء مجتمع صالح بصلاح أفراده من جهة ثانية؛ ولذلك أولى الإسلام للأسرة أهمية خاصة من حيث تكوينها ووظائفها وسبل استقرارها باعتبارها نواة المجتمع وأساس صلاحه وتقدمه وازدهاره، كما أمر القرآن الناس بالتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان لقوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ [2].

وقد لاحظنا في زمن كورونا أصنافا من الناس في المجتمع؛ تبعا لطبيعة التربية الأسرية، والمبادئ والقيم التي نشأوا عليها ويعيشون بها، وهكذا شاهدنا فئات عريضة من المجتمع تجسد قيم التضامن والتكافل والتعاون على البر والتقوى بصور وأشكال مختلفة، مثل تقديم مساعدات غذائية ومادية، وتنظيم حملات للتوعية، واستشارات طبية عن بعد، وغيرها من الخدمات الاجتماعية مجانا، إما من خلال جمعيات أو مؤسسات أو مبادرات فردية...خدمة للصالح العام، وهذه

(1) سورة العنكبوت، الأية 43.

(2) سورة المائدة، الأية 2.

هـي المواطنـة الصالحـة. وبالمقابـل شـاهدنا فئـة مـن الأنانيـين الذيـن يتسـابقون إلى المحـلات التجاريـة لتخزين السـلع والمـواد الغذائية، دون اعتبـار للآخريـن، وكأن القيامة قائمـة؛ مـما أثـار الرعـب والهلـع والخـوف بـين المواطنـين، وأحـدث نوعـا مـن الفتنـة الاجتماعيـة. كـما شـاهدنا فئـة الانتهازيـين الذيـن يسـتغلون هـذه الفـرص لامتصـاص دمـاء النـاس دون رحمـة أو شـفقة، بـل ودون اعتبار للقيـم الإنسـانية والقوانـين التنظيمية، ومثـال ذلـك اسـتغلال بعـض التجـار لحاجـة النـاس مـن المـواد الاسـتهلاكية فـزادوا في الأثمنـة أضعافـا مضاعفـة، وأيضـا اسـتفادة بعـض الفئـات مـن الدعـم المـادي الـذي قدمتـه الدولـة مـن صنـدوق كورونـا المخصـص لدعـم الفئـات المحتاجـة رغـم أنهـا غـير محتاجـة لـه ولا تسـتحقه، بـل وكان مـن المفـروض أن يتعاونـوا بمـا أفـاء اللـه بـه عليهـم مـن المـال مـع إخوانهـم وأبنـاء شـعبهم المحتاجـين، لكـن الطمـع والبخـل إذا اجتمعـا مـع سـوء التربيـة وغيـاب المبـادئ والقيـم النبيلـة، يصنـع إنسـانا مفترسـا في صـورة بـشر. كـما صـدم جميـع المغاربـة بجشـع بعـض المؤسسـات الخصوصيـة في مجـالي الصحـة والتعليـم التـي عـبرت صراحـة عـن رغبتهـا في الاسـتفادة مـن دعـم صنـدوق كورونـا رغـم أنـه كان يفـترض أن تكـون مبـادرة إلى إبـراز مواطنتهـا وتحمـل مسـؤوليتها في هـذه الظرفيـة التاريخيـة، لكـن هيهـات هيهـات! وهـذا مـن الـدروس الكبـيرة للمجتمـع والدولـة. كـما لاحظنـا أيضـا سـوء اسـتغلال واسـتخدام بعـض أفـراد السـلطة وأعوانهـم لقانـون الطـوارئ مـن أجـل ممارسـة التسـلط والقمـع في حـق المواطنـين دون مراعـاة ظروفهـم وكرامتهـم وحقوقهـم الدسـتورية، وكـذا لتحقيـق نزوات ومـآرب شـخصية، مـع تقديرنـا وتنويهنـا بـكل الجهـود التـي تبذلهـا كافـة السـلطات ومؤسسـات الدولـة وكافـة المتدخلـين والفاعلـين كل حسـب موقعـه ومسـؤوليته لحفـظ صحـة المواطنـين والسـهر عـلى أمنهـم واسـتقرارهم.

وبنـاء عـلى مـا سـبق يمكـن القـول بـأن مجتمعنـا فيـه وللـه الحمـد كل خـير، ولا زالـت تسـوده في الغالـب الأعـم قيـم التعـاون والتضامـن، وحـس المواطنة والمسـؤولية. لكـن هـذا لا يمنـع مـن الاعـتراف بالحقيقـة المـرة وهـي أن مجتمعنـا يحتـاج أيضـا إلى الكثـير مـن بـذور التربيـة السـليمة، وعمليـات التشـذيب والتنقيـة، وحمـلات التحسـيس والتوعيـة، وتطبيـق القانـون عـلى الجميـع بـكل عـدل وإنصـاف ومسـؤولية عـلى كل المتلاعبـين بمصالـح العبـاد والمقامريـن بأمـن البـلاد؛ وهـذه مسـؤولية الدولـة أولا

والأسر والتعليم والإعلام الهادف الذي ينشر الثقافة السليمة وليس التفاهة والرذيلة، وأيضا مسؤولية العلماء والمفكرين والمثقفين والأدباء، والسياسيين وكذا الأحزاب ومؤسسات المجتمع المدني وكل المتدخلين والفاعلين؛ لبناء مجتمع سليم ومعافى وآمن، لقوله صلى الله عليه وسلم في حديث السفينة بتشبيه بليغ، عن النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: "مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا"[1] إن جائحة كورونا أكدت هذه الحقيقة، وهي أن المجتمع كسفينة واحدة يركبها الجميع، إن نجت نجا الجميع، وإن غرقت غرق الجميع، لأن الجميع لا يستغني عن الجميع؟ كما أخبر بذلك الصادق الأمين.

ثالثا: على مستوى الدولة: تكشف هذه الأوبئة والمحن عن حقيقة الدول ومصداقية سياستها وتوجهاتها واختياراتها وقوتها وضعفها وتقدمها وتخلفها...، ونموذج ذلك جائحة كورونا التي كشفت حقائق مهمة أهمها:

- أن الدول التي تحترم نفسها ومواطنيها وسيادتها تبني وتستعد في السراء قبل وقت الضراء، كبناء النظام الصحي مثلا.
- أن الدول في وقت الشدائد والمحن لا تلتفت إلى بعضها البعض إلا نادرا في إطار مساعدات محدودة جدا وعلى المقاص، وكأن لسان حالها يقول: نفسي نفسي وبعدي الطوفان، ومثال ذلك ما شهدناه جميعا كيف تخلت دول الاتحاد الأوروبي عن بعضها البعض في الواقع وقت أزمة كورونا، وإن ادعت في الظاهر وإعلاميا عكس ذلك، كما حدث مع إيطاليا وصربيا؛ حيث عبر المسؤول الأول الحكومي الصربي عن هذه الحقيقة عندما شكر دولة الصين عن دعم ومساندة بلاده، وبالمقابل عبر عن استغرابه وتذمره واستيائه عن امتناع دول الاتحاد عن بيع الأدوية والمواد وتقديم

(1) رواه البخاري في صحيحه.



المساعدة لبلاده ...

- أن الدولة يجب أن تعيد النظر في أولوياتها وسياستها العامة وتوجهاتها الاستراتيجية خاصة في مجالي التعليم والصحة؛ ففي مجال التعليم أبانت هذه المحن والجوائح أن قطاع التعليم العمومي هو الخيار الاستراتيجي الوحيد الذي ينبغي المراهنة عليه؛ لأن هدفه وغايته بناء المواطن الصالح المسهم في إصلاح بلده وتنميته واستقراره، وذلك عكس القطاع الخاص الذي يكون هدفه وغايته الربح المادي بالدرجة الأولى وإن ادعى في الظاهر خلاف ذلك، ونفس الأمر يقال عن قطاع الصحة العمومي مقارنة بقطاع الصحة الخصوصي الذي يمتص دم المواطنين قبل علاجهم وزاد من معاناتهم المادية بالخصوص عوض الإسهام في تخفيفها، وكم اندهش المغاربة وصدموا من رسالة لهيئات المدارس الخاصة تطالب فيها رئيس الحكومة بالاستفادة من دعم صندوق كورونا، قبل أن تخرج رابطة التعليم الخاص ببيان تعتذر فيه بعد الضجة والغضب الشعبي العارم. وكذا الرسالة الموجهة من طرف رئيس الهيئة الوطنية للطبيبات والأطباء بالمغرب إلى رئيس الحكومة يطلب فيها دعما ماليا، قبل أن تعتذر النقابات والهيئات الممثلة لأطباء القطاع الخاص بعد موجة الغضب والسخط في صفوف المواطنين. وهذا الحكم ليس عاما؛ ينطبق على كل المدارس والمؤسسات الصحية الخاصة، وإنما على بعضها فقط؛ وإلا فإننا نوه ونشيد بما أبان عنه معظمها من مسؤولية ومواطنة في هذه الظروف الاستثنائية. إن الدولة بعد هذه الجائحة مطالبة بإعادة النظر في قطاعي التعليم والصحة الخاصين؛ سواء في الامتيازات الممنوحة لهما أو في طريقة اشتغالهما وعملهما أو في توجهاتهما وأهدافهما بما يخدم مصلحة الوطن والمواطنين، وليس تحقيق مصالح شخصية وفئوية على حساب الشعب المقهور أصلا، فما هكذا تدار الأمور، وتتحقق العدالة والكرامة للمواطنين؟

- أبانت جائحة كورونا على أن التكنولوجية الحديثة تشكل إحدى معالم وملامح مستقبل الإنسانية؛ والدليل على ذلك أن كثيرا من الخدمات

المباشرة تم تعويضها بالخدمات عن بعد بواسطة هذه التقنية؛ كما في التعليم، وبعض الإدارات والمؤسسات والقطاعات... باعتبارها الخيار الوحيد الممكن في ظل الحجر الصحي الشبيه بالإقامة الجبرية؟ وكذا متنفس المواطنين. وأنا هنا لست بصدد تقييم هذه التجربة أو الحكم عليها في هذه الظروف الاستثنائية؛ لكن أثير فقط بعض الملاحظات؛ أهمها:

- أن مشروع الرقمنة ينبغي أن يكون خيارا استراتيجيا للدولة في مختلف القطاعات باعتباره جزءا من ملامح المستقبل الحضاري المنشود.
- أن يتم توفير الوسائل والموارد والإمكانيات اللوجستيكية وتعميمها لتسهيل تنزيل هذه العملية.
- ثم أن يتم تكوين المعنيين بتفعيلها وتوظيفها في مختلف القطاعات وتأهيلهم لها في الظروف العادية وفق خطط واستراتيجيات وليس في الظروف الاستثنائية وبعناوين وشعارات فقط؟. فهذه أبرز الدروس والعبر والعظات، وهي غيض من فيض كما يقال.

خاتمة

إن ابتلاء الإنسان وامتحانه سنة إلهية مطردة في كل زمان ومكان، وجارية على الأفراد والأقوام والشعوب والأمم، بأشكال وألوان، لحكم إلهية ومقاصد شرعية، وعبر وعظات للبشرية.

ولا شك أن جائحة كورونا كانت درسا قاسيا للإنسانية؛ فرديا ومجتمعيا، ماديا ومعنويا، فكريا وعلميا وأخلاقيا، اقتصاديا وسياسيا، داخليا وخارجيا...؛ ولذلك يجمع العقلاء على أن العالم ما بعد أزمة كورونا لن يكون مثل ما كان قبل، وقد تعددت العناوين الدالة على هذا المعنى في وسائل الإعلام المختلفة المرئية والمقروءة، وكذا في الأبحاث والدراسات...، لكنها تلتقي في شعار كبير هو:" العالم ما بعد أزمة/ جائحة كورونا" و"تحولات الفرد والمجتمع والعلاقات الدولية

في عـالم مـا بعـد الجائحـة "

فهـل سـيعتبر النـاس والـدول، ويعيـدوا النظـر، ويتعاونـوا عـلى الخـير والإحسـان وتبـادل المنافـع، والوصـول إلى كلمـة سـواء؟. ثـم هـل سيسـتفيد المسـلمون مـن هـذه المحنـة ويحولونهـا إلى منحـة ونعمـة، ويصنعـون لأنفسـهم مكانـة محترمـة ومنزلـة متميـزة بـين الشـعوب والأمـم، خصوصـا وأنهـم يمتلكـون كل مقومـات التغيـير وشروط النهضـة والتقـدم مـن جديـد؛ إن أحسـنوا قـراءة وفهـم سـنن اللـه وآياتـه المقـروءة والمسـطورة في القـرآن والكـون والإنسـان في المـاضي والحـاضر والآفـاق، وعملـوا عـلى تنزيلهـا وتفعيلهـا في واقـع الحيـاة وفـق خطـط واسـتراتيجيات، وليـس بالعناويـن والشـعارات؟؟ ذاك هـو المأمـول والمرتجـى، و﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ (1) والحمـد للـه رب العالمـين.

(1) سورة هود، الأية 88.